محاضرات قدمت في مقياس مناهج البحث في العلاقات الدولية لطلبة السنة الثالثة
علوم سياسية: تخصص علاقات دولية
الأستاذة : بوراس عفاف

المنهج البنائي

مقدمة:

إن تطبيق المناهج والنظريات في دراسة العلاقات الدولية تهدف إلى محاولة تفسير وتحليل الظواهر السياسية والعلاقات بين الدول، وهذا من اجل معرفة الأسباب والدوافع وراء الأحداث الجارية بينها، وبالتالي محاولة التنبؤ بمسار هذه العلاقات في المستقبل، ويمكن اعتبار البنائية منهجا لأنّها من المداخل الفكرية التي تقدم سبيلا منهجيا لدراسة العلاقات الدولية بمنظور سوسيولوجي. فهي قبل ثمانينيات القرن العشرين كانت اتجاها أبستمولوجيا فلسفيا، محور اهتمامه كيف تتشكل المعاني لدى البشر في سياق التفاعل بين خبراتهم وأفكارهم، وهي مقترب يجعل من الممكن للباحث في العلاقات الدولية وضع أسس نظرية لظواهر السياسة الدولية وتمكنه من التنبؤ بظواهر عامة.

I- نشأة المنهج البنائي:

في البدية ظهرت البنائية كنظرية في العلوم الاجتماعية ثم أصبحت من النظريات الأساسية في علم الاجتماع، إلاّ أنها لم تدخل العلاقات الدولية إلا مع نهاية الثمانينيات من القرن العشرين. وقد برزت كتابات عديدة في هذا المجال مثل كتابات الكساندر ،وندت ونكلاس أنوف، وفردريك كروتشويل التي أسهمت إلى حد كبير في وضع الأسس لهذه المنهج

إذ يعد كتاب الكساندر وندت " بعنوان النظرية الاجتماعية في السياسة الدولية من أهم الكتب حيث يرى فيه العديد من الأكاديميين مرجعا للنظرية البنائية، فقد طرح بشكل واضح الافتراضات الأساسية للبنائية، وعملية تكوين الهوية من خلال العلاقة والتفاعل بين الفاعل والبناء أي التفاعل بين الدولة والمجتمع الا ان نشأة البنائية كمنهج في تفسير لعلاقات الدولية مرتبطة بشكلٍ وثيق بانتهاء الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الأميركية والإتحاد السوفياتي، وهو الحدث الذي فشلت النظريات و المناهج التقليدية كالواقعية والليبرالية بتفسيره. هذا الفشل يعود إلى أن مبادئ هذه المناهج والنظريات تركز بشكل أساسي على القوة والمصلحة الوطنية حين تدرس العلاقات بين الدول.

II- البنائية كنظرية اجتماعية : مثلها مثل عدة نظريات في العلاقات الدولية، نشأت البنائية كنظرية اجتماعية قبل أن يتم تطبيقها أو الاستعانة بها في حقل العلاقات الدولية، لذلك من الضروري جدا استعراض مبادئها الاجتماعية من أجل فهم رؤيتها تجاه العلاقات الدولية. تنص البنائية على أن العلاقات البشرية تتكون من أفكار وليست محصورة في شروط مادية أو عناصر القوة بالنسبة للبنائية، فإن العالم الاجتماعي ليس معطى، أي ليس شيئا موجودا في مكان ما بشكلٍ مستقل عن الأفكار والآراء للأشخاص المشمولين به. فهو ليس واقع خارجي حيث يمكن اكتشاف قوانينه من خلال البحث العلمي أو تفسيره عبر النظرية العلمية كما قال السلوكيون على سبيل المثال كل شيء ضمن العالم الاجتماعي للرجال والنساء صنعوه بأنفسهم، وهو ما يجعله واضحا ومفهوما لهم. العالم الاجتماعي هو عالم مكون من الوعي الإنساني، ومن الأفكار والمعتقدات، ومن المبادئ واللغات، ومن الإشارات والمفاهيم السائدة بين البشر، بخاصة بين الجماعات البشرية، مثل الأمم والدول. العالم الاجتماعي هو في نطاق الذاتية المشتركة، حيث يكون له معنى للأشخاص الذين صنعوه ويعيشون داخله، والذين يفهمونه بدقة كونهم هم من أوجدوه ويشعرهم بالانتماء والأمان.

III- مفهوم النظرية البنائية في العلاقات الدولية : تركز البنائية بشكلٍ أساسي على الوعي الإنساني والدور الذي يلعبه في الشؤون الدولية، بعكس النظريات الأخرى وخاصة الواقعية الجديدة التي تركز على الجانب المادي وعلى كيفية توزيع القوة من عسكرية وقدرات إقتصادية، في تحديد توازن القوى وفي شرح سلوك الدول. فالبنائيون يرفضون هذا التفسير المادي الحصري، ويعتبرون أن أهم عنصر في العلاقات الدولية هو عنصر إجتماعي وليس مادي، أي أن عالمنا بالنسبة للبنائية مكون إجتماعيا في المقام الأول، يعتبر ألكسندر ويندت Alexander Wendt – أهم من أسهم في تطوير المنظور البنائي، و قد قدم مثالا ممتازا لشرح البناء الإجتماعي لواقعنا حينما قال أن التهديد الناتج عن 500 سلاح نووي بريطاني بالنسبة للولايات المتحدة الأميركية هو أقل من التهديد الناتج عن 5 أسلحة نووية لكوريا الشمالية، لأنّ التهديد ليس ناتجا عن الأسلحة النووية بحد ذاتها *البنية المادية*، بل عن المعنى الممنوح لهذه البنية المادية *أي البنية الفكرية*، بالتالي فإن الأسلحة النووية ليس لها أي معنى إلا حينما نضعها بالإطار الاجتماعي الذي يحدد العلاقة القائمة بين كل من الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا من جهة، وبين الولايات المتحدة الأميركية وكوريا الشمالية من جهة أخرى . بالنسبة لويندت فإن عملية التفاعل بين الدول هي التي تحدد الهويات وتخلق المصالح، بعكس ما يفترض الواقعيون بأن الهويات والمصالح موجودة مسبقا، أي الدول تعرف هويتها وماذا تريد قبل أن تبدأ بالتفاعل مع دول أخرى بالنسبة للواقعية. يطرح ويندت

مثالا آخر ويقول إذا قررت الولايات المتحدة الأميركية والإتحاد السوفياتي أنهما ليسا عدوين، فإن الحرب الباردة ستنتهي، أي أن المعنى الاجتماعي هو الذي يكون البنية التي تنظم وتحدد أفعالنا وتحركاتنا.

1- الافتراضات الأساسية للبنائية في تفسير العلاقات الدولية

يشير بول فيوتي ومارك كوبي إلى أن هناك أربعة افتراضات تنطلق منها البنائية في العلاقات الدولية:

*-تتخذ البنائية موقفا مغايرا لموقف النظريات الوضعية من مفاهيم أساسية في العلاقات الدولية مثل المصلحة الوطنية، والهوية، والأمن القومي، إذ يرفض البنائيون قبول هذه المفاهيم كما هي معطاة. لأنهم يهتم بالقوى الفاعلة غير الدولة، مثل المنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية، فضلا عن ذلك يركز أتباع البنائية على العوامل المعرفية والذاتية التي تنتج عن تفاعل هذه الوحدات في علاقاتها البينية.

*-يرى البنائيون بنية النظام الدولي على أنها بنية اجتماعية تتضمن مجموعة من القيم والقواعد والقوانين. هذه البنية تؤثر في الهوية والمصلحة للفاعلين.

*-البنائية كما يستدل من اسمها، تنظر إلى النظام الدولي بأنه عملية دائمة مستمرة من البناء الحاصل من التفاعل بين الفاعلين والبناء نفسه. فبالنسبة إلى البنائيين العالم دوما هو قضية متجددة ليس شيئا تم وانتهى وعلينا قبوله كما هو. وهذا بالطبع موقف مختلف عن موقف الواقعيين والليبراليين وحتى الراديكاليين بنظرتهم إلى البناء.

*-قدم أتباع النظرية البنائية إسهامات جادة في الحوار والجدل الابستمولوجي والانطولوجي في العلاقات الدولية. إذ يرفض البنائيون الافتراضات الوضعية بوجود قوانين وشبه قوانين تحكم الظاهرة الاجتماعية والسياسية بعيدة عن إرادة الفاعل وقدرته في التأثير في محيطه. كما ترفض البنائية افتراضات الوضعية بإمكانية الموضوعية، أي فصل الذات عن الموضوع. نقطة الانطلاق للبنائية هي افتراضها الأساسي بأن الانسان كائن اجتماعي. بمعنى أنه لا يمكن لنا أن نكون أناسا دون علاقاتنا الاجتماعية. أي إن العلاقات الاجتماعية هي التي كونت الناس على ما هم عليه الآن. وبالمقابل، نحن نكون العالم من حولنا بما نفعل بما تمنحه الطبيعة من موارد، وبما نقول لبعضنا بعضا، وفعلا القول بعض الأحيان كالفعل، فما نقوله لبعضنا بعضا يصبح جزءا مهما من تركيبة العالم من حولنا حيث كتب نكولاس انوف كتابه***عالم من صنعنا*** * , " World of our Makingوالذي يعتبر من اهم المراجع التي تفسر البدايات الأولى للبنائية في العلاقات الدولية، ويرى أنوف ان الدول والمجتمعات والعالم، ما هي إلا من صنع الناس من خلال تفاعلاتهم البينية ومع البناء. فجوهر البنائية هو أن الناس أي الأفراد يصنعون المجتمع والمجتمع يصنع الناس. هذا الطريق ذو الاتجاهين أو هذه العملية المتبادلة بين المجتمع والناس هي محور اهتمام البنائية.

يرى أتباع البنائية أنه من أجل دراسة هذه العملية أي التأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع لابد من أن نبدأ في الوسط، أي من آلية التأثير بين الجهتين. ولذلك يقدم البنائيون مفهوم القاعدة بمعنى الضابط التي بنظرهم تربط وتصل بين الفرد والمجتمع. فالقاعدة بالنسبة إلى أتباع البنائية هي العبارة التي تعلمنا ماذا نفعل حيث تؤلف لنا المعيار أو المقياس أو النموذج الذي يجب أن يفعله الناس في ظروف متشابهة فتخبرنا بضرورة الالتزام بالقاعدة، وإلا سنتحمل النتائج وهو ما يسمى بالممارسات. ويسمى القائمون بالفعل على هذه الممارسات بأنهم فاعلون وفي العلاقات الدولية حيث ان الفاعل الأساسي هو الدولة والبناء هو المجتمع، اما في تفسير النظام الدولي، ويعتقد بعض البنائيين أن المنظمات الدولية وبعض القوى الفاعلة غير الدولة يمكن أن تكون (فاعلا أيضا كالدولة) وجزءا من عملية التفاعل في العلاقات الدولية، ولكن لا يمكن لأي فاعل أن يكون فاعلا في الأوضاع جميعها وفي الحالات جميعها وإنما في بعض الحالات التي من خلالها يجري التفاعل بين هذا الفاعل والبناء في مسار سلوك هذا الفاعل.

2-أهم المفاهيم في النظرية البنائية إن لكل نظرية من النظريات أدوات تحليل ومفاهيم تستند إليها في رؤيتها وفهمها لظاهرة معينة فالواقعية على سبيل المثال لديها مفاهيم مثل الأمن القومي، والقوة، والمصلحة وغيرها، في حين تعتمد النظرية الليبرالية على مفاهيم مثل التعاون الدولي، والتكامل، والاعتمادية المتبادلة، وفي رؤيتها للعلاقات الدولية توظف النظرية البنائية بعض المفاهيم المشتركة مع النظريات الأخرى وإن اختلفت رؤيتها في معنى هذه المفاهيم ودورها.

أولا: مفهوم الدولة والقوة لدى البنائيين: السياسة الدولية عند أنصار البنائية لا يمكن تحليلها وفهمها بالتركيز فقط على بنية النظام الدولي كما يعتقد الواقعيون الجدد الذين يرون أن بنية النظام الدولي (توزيع القوة في النظام الدولي) بشكل آلي وأوتوماتيكي يؤثر في سلوك الدول، بل يرفض البنائيون هذا التعميم في أثر النظام الدولي في سلوك الدول، وبالمقابل يرى البنائيون أن الدول تتصرف بهذا الشكل نتيجة العلاقات الاجتماعية وتفاعلها مع بنية النظام الدولي التي تشكل إطار اجتماعيا من القواعد والقيم التي تتصرف الدول من خلالها. من ذلك نستنتج أن البنائيين يصرون على أن السياسة الدولية ليست بالضرورة محكومة بالقوة والمصلحة فقط، فهناك مبادئ وقيم ومفاهيم مثل السيادة وعدم التدخل التي أصبحت جزءا من الإطار الاجتماعي لسلوك الدول والتي تُؤلِّفُ ضابطاً لهذه الوحدات وإن كانت تخترق في بعض الأحيان لان مخالفة القاعدة لا يعني عدم وجودها.

إن مفهوم القوة كما يراه البنائيون ليس كما يراه الوضعيون أو بشكل خاص أتباع النظرية الواقعية.

إذ يعد الواقعيون القوة جوهر العلاقات الدولية وخاصة القوة العسكرية التي تعد بنظرهم هدفا ووسيلة في تحقيق المصالح الوطنية. إن هذه النظرة المادية لمفهوم القوة جعلت الواقعيين يركزون على عوامل تسهم في مقدرة قوة الدول مثل: الأرض، والسكان، والاقتصاد، والقدرة العسكرية.

بالنسبة إلى البنائيين فمفهوم القوة هو بناء اجتماعي بحد ذاته يتحدد معناه وأثره من خلال التفاعل بين الوحدات الفاعلة في النظام الدولي والبناء الذي يحتوي هذا التفاعل.

أما ما يتعلق بالدولة فهي بالنسبة إلى البنائيين بناء اجتماعي ووحدة سياسية تُؤَلِّفُ الفاعل الأساس ولكن ليس الوحيد في العلاقات الدولية.

ثانياً: المصلحة الوطنية في النظرية البنائية: مفهوم آخر في العلاقات الدولية يعد من أهم المفاهيم ومن أكثرها غموضا هو مفهوم المصلحة الوطنية. إن مفهوم المصلحة الوطنية يعد من المفاهيم المركزية للواقعية إذ ينظر إليه على أنه شيء تملكه الدول ويبنى على مر الزمن ويرتكز على بعض الأسس أهمها موقع الدولة الجغرافي، والموارد التي تحتويها الدولة، وعدد السكان، والأهداف الاستراتيجية للدولة، وعوامل أخرى. أما التيارات النقدية في العلاقات الدولية فتثير العديد من الأسئلة عن مفهوم المصلحة الوطنية ولا تعده شيئا معطى أو محددا مسبقا، بل تشير إلى مجموعة من النقاط والتساؤلات مثل مصلحة من؟ لأن أتباع النظريات النقدية لا يعتقدون بأن الدولة وحدة متكاملة وتتصرف بصوت واحد هناك العديد من الطبقات والجماعات ومراكز القوى الكثيرة التي تسهم في تعريف المصلحة الوطنية. أما بالنسبة إلى البنائية فالمصلحة الوطنية ليست شيئا محددا بشكل موضوعي، بل هي مشروع دائم التكوين ويختلف مع اختلاف الزمن والعلاقات الاجتماعية للفاعل. والبنائيون مهتمون اهتماما كبيرا بالعلاقة بين المصلحة والهوية وبشكل مبسط فإن أتباع البنائية يعتقدون أن الهوية والأفكار والمصلحة مفاهيم لا يمكن الحديث عن إحداها دون الأخرى.

ثالثاً: أهمية الهوية في النظرية البنائية: الهوية من المفاهيم المهمة لأتباع النظرية البنائية لأنها تساعد على تحديد معنى المصلحة للفاعل، كما يعد مفهوم الهويةIdentity من الابعاد الأساسية في رسم السياسة العامة للدولة. إذ يفترض البنائيون أن الهوية تمنح أو تحدد للفاعل دورا في العلاقات الدولية؛ وبذلك سيتصرف الفاعل دوما بما يراه ملائما، فعلى سبيل المثال أظهرت مجموعة من الدراسات أن الاعتقاد السائد بين الألمان بعد الحرب العالمية الثانية بأوروبية ألمانيا وبأهمية التكامل الأوروبي أدى إلى سياسات مختلفة عما سبق. كذلك اعتقاد البريطانيين وتحديد هويتهم بالعلاقات الأطلسية حدد دور بريطانيا في العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية. فضلا عن ذلك يركز أتباع البنائية على العوامل والطرائق التي تحدد الهوية للفاعل وكيف تتغير هذه الهوية؟ فهم قريبون بذلك -إلى حد ما- من أتباع ما بعد الحداثة؛ وتوظيفها لهذا المنهج بتحليل الهوية وتوصيفها. وهذا (Othering) وذلك بتوصيف ما يسمى بالآخر الأسلوب يعتمد على أن لكل هوية نقيضاً أو معياراً مخالفاً له أو مغايراً. فعدم وجود الآخر يلغي وجود الأنا والهوية. ولكن يتميز البنائيون عن أتباع ما بعد الحداثة بأنهم لا ينطلقون من أسس لغوية أو فلسفية، بل من علم النفس الاجتماعي. فالدراسات العديدة لمجموعات أو جماعات إنسانية أظهرت أن هذه الجماعات تفرق بين من ينتمي إلى المجموعة ومن هو خارج هذه المجموعة ويكتسبون هويتهم من هذا التفريق، وهناك أمثلة عديدة تعطى على ذلك مثل الهويةOutsiders الأوروبية ضد الهوية التركية، أو الهوية البريطانية ضد الهوية الأوروبية أو الهوية الأمريكية في مواجهة جماعات وأمم أخرى. والهوية بالنسبة إلى البنائيين لا تتغير بشكل سهل إلا إذا كان هناك تغير كبير جعل الوحدات الفاعلة تنخرط بعلاقات اجتماعية جديدة تسهم في تحديد هوية جديدة فبالنسبة إلى الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية بالنسبة إلى أوروبا أيضا، وبعد أحداث 11سبتمبر الأمريكية.

والمهم هنا أن نميز ثلاث نقاط أساسية: 1-العلاقة بين الهوية والمصلحة والقاعدة.

2-الهوية تحدد سلوك الفاعل، وهي بدورها تتحدد من خلال التفاعل بين الفاعل والبناء.

3-ليس من السهل تغيير الهوية إلا في حالات كبيرة جداً تستدعي بروز هوية جديدة على حساب هويات أخرى.

رابعاً: الأمن والسلام لدى أتباع البنائية:

اهتم أتباع النظرية البنائية بدراسة الأمن والسلام، وقد تركزت دراسات البنائيين على ثلاثة محاور:

*-أشار بعض البنائيين إلى ما يسمى بثقافة الأمن لدى بعض البلدان التي تحدد الرؤية والسياسات الأمنية لتي تضعها هذه الدول فيما يتعلق بأمنها القومي، تأسيسا على كتابات البنائيين الأوائل عن الثقافة والقيم والهوية، يحاول أتباع النظرية البنائية دراسة الأثر التراكمي لتشكيل نوع من الثقافة ملامحها الأساسية "الأمن"، أي ان ارتكازاتها الأساسية المنطقية هي تحقيق الأمن والسلام كأولوية للحكومة المركزية، وخاصة إذا كانت هذه الدول تعاني من العديد من الأزمات والتحديات وعدم الاستقرار؛ وهذا يقود إلى تداول مفاهيم وقيم تتعلق بالأمن وتصبح هذه المفاهيم و القيم جزءاً كبيراً من الإطار الاجتماعي "البناء" الذي يتفاعل معه الأفراد، وفي ظل ذلك التفاعل تصبح ثقافة الأمن هي العامل الأساسي في رسم السياسات للدول.

*-طور مجموعة من أساتذة العلاقات الدولية تحت عنوان "التجمعات الأمنية" أو الجماعات الأمنية

مجموعة من الدراسات التي استمدت من دراسات كارل دويتش كثيرا منSecurity Communities الأفكار والمبادئ توجد التجمعات الأمنية عندما تشعر مجموعة من الدول بأنها مجموعة واحدة ولديها الإحساس بالانتماء إلى هذا التجمع، وتبدأ هذه الدول بتأسيس مؤسسات وهيئات للحفاظ على السلام والأمن داخل هذا التجمع وقد ميز الباحثون بين عدة أنواع من التجمعات الأمنية أهمها التجمعات الكبيرة التي يعكسها نظام الأمن الجماعي على الصعيد الدولي، والنوع الآخر هو الأصغر أو التجمع الاقليمي الذي ينشأ عندما تجتمع مجموعة من الدول لتنشئ نظاماً مشتركاً للأمن، مع احتفاظ كل منها بسيادته واستقلاله. وقد تركزت أغلب الدراسات في هذا المجال في عدة أسئلة مثل: كيف تؤثر القيم والمؤسسات للمجتمعات الأمنية في السياسات الأمنية للدول؟ وكيف تتغير التجمعات الأمنية؟

IV- نقد النظرية البنائية: أبرز الانتقادات التي نالتها البنائية وُجهت من قبل خصمها الفكري أي الواقعية الجديدة، وهي:

*- شكك الواقعيون بالأهمية العظمى التي توليها البنائية للأنماط الاجتماعية، بخاصة على الصعيد الدولي، واعتبروا أن هكذا أنماط موجودة بالفعل لكنّ يمكن تجاهلها بسهولة من قبل الدول الكبرى حينما تتعارض مع مصالحها.

*- لم يتقبّل الواقعيون فكرة أن الدول تدخل بسهولة بعلاقات صداقة مع بعضها بناء على نوع تفاعلهم الاجتماعي، فهكذا هدف ربما يكون مرغوب بالمبدأ، لكنّه غير قابل للتطبيق بالممارسة، لأن تركيبة النظام الدولي تجبر الدول على التصرف بأنانية.

*- من المشاكل التي أغفلتها البنائية هي شعور الدول بالريبة أو عدم اليقين تجاه بعضها البعض، أي عدم التأكد من النوايا الحقيقية سواء الحالية أو المستقبلية. كذلك أغفلت مشكلة الخداع، فالبنائية اعتبرت أن التفاعل الاجتماعي بين الدول يكون صادقاً وصريحا على الدوام.

خاتمة: إن طبيعة مرحلة مابعد الحرب الباردة شكلت البيئة المناسبة لاختبار النظرية البنائية التي يرى العديد من المنظرين أنها تقدم مدخلاً مناسبا مثل ريتشارد لتل Richard Little و بيري بوزان Barry Buzan وهذا لفهم العلاقات الدولية ودراستها في مرحلة ازداد فيها دور الهوية والعوامل الاجتماعية في ظل نظام العولمة والحروب الأهلية؛ ولذلك تجد هذه النظرية قبولاً كبيراً بين الأكاديميين والسياسيين على حد سواء.

وباختصار إن البنائية كنظرية في العلاقات الدولية تحاول أن تجد العلاقة أو الرابط بين المكونات الثلاثة في العلاقات الدولية الفاعل، والبناء، وعملية التفاعل بينهما، وبذلك نرى أن البنائية تعد العلاقات الدولية هي علاقات اجتماعية إنسانية بالدرجة الأولى، فتعد البنائية كما ذكرنا سابقاً جسراً أو وسطاً بين التيارات الوضعية والتيارات ما بعد الوضعية.